شرح كتاب (الرد على الجهمية) لعثمان بن سعيد الدارمي -رحمه الله.

شرح فضيلة الشيخ

أ.د. أحمد بن عبدالرحمن القاضي

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس (٢٩)

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

[سمعت محمد بن منصور يقول: { رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام حدثان ما استخلف جعفر، فقال له: إن ناساً يقولون: القرآن مخلوق، فقال بوجهه هكذا، كأنه أعرض، فقلت: أليس كلام الله غير مخلوق؟ قال: نعم، ثم قلت له مرة أخرى، فقال: نعم].

قال: هذا أثر صحيح، لكن على كل حال ... عن هذا منام، يقول: هذا أثر صحيح أخرجه عبد الله بن أحمد واللالكائي من طريق محمد بن منصور الطوسي قال: رأيت في المنام كأني قاعد فرفعت رأسي فإذا النبي صلى الله عليه وسلم جالس فوق شيء مرتفع فذكر نحوه مطولاً.

قوله: حدثان ما استخلف جعفر، من جعفر؟ لا أعلم، طيب. ثم قال.

[حدثنا عبد الله بن صالح المصري، حدثنا يحيى بن أيوب، عن عبيد الله بن أبي جعفر، عن رجل من شيوخ أهل مصر، أنه حدثه عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: {للقرآن أحب إلى الله من السماوات والأرض وما فيهن }.

قال أبو سعيد: فهذا ينبئك أنه نفس كلام الله وأنه غير مخلوق، لأن الله عز وجل لم يخلق كلاماً إلا على لسان مخلوق، فلو كان القرآن مخلوقاً كما يزعم هؤلاء المعطلون، كان إذاً من كلام المخلوقين، وكل هذه الروايات والحكايات والشواهد والدلائل قد جاءت وأكثر منها في أنه غير مخلوق، ثم إحاطة علم العلماء

وعقول العقلاء بأن كلام الخالق لا يكون مخلوقاً أبداً، إذا كان في دعواهم قبل أن يخلق الكلام منقوصاً مضطراً إلى الكلام حتى خلقه، وكملت ربوبيته وتمت وحدانيته بمخلوق في دعواهم].

لكن هذا أيها الإخوة هو شؤم الاعتقادات الفاسدة والمقدمات الباطلة، ولهذا انظروا كيف تُفسد هذه المقدمات الفاسدة بعض كلام الشُراح وتعليقاتهم على شروح الأئمة، من أصول أهل السنة، أو من الأصول التي يعول عليها أهل السنة: الرسالة، لابن أبي زيد القيرواني، وابن أبي زيد القيرواني من فقهاء المالكية المتقدمين، حتى أنه كان يلقب بمالك الصغير، وله الرسالة مشهورة، ومقدمتها مقدمة عقدية، وجاء في كلامه رحمه الله: القرآن كلام الله غير مخلوق، ولما كان عامة متأخري المالكية على طريقة الأشاعرة، وأتوا إلى هذه الجملة البينة: القرآن كلام الله غير مخلوق، ماذا صنعوا؟ انظروا كيف يقع التحريف بسبب هذه المقدمات الفاسدة، قالوا: القرآن كلام الله غير مخلوق، لاحظوا، ما مرادهم بهذا، معظم الشراح الذين شرحوا الرسالة لابن أبي زيد القيرواني حملوها على هذا اللفظ، يعني على التقييد، يعني لما كانت الأشاعرة تجعل كلام الله يتنزل على المعنى القديم القائم في نفسه، وهذا غير مخلوق، واللفظ المسموع والأصوات والحروف وهي مخلوقة، جعلوا كلمة (كلام الله) قيداً للقرآن، فحملوا كلام ابن أبي زيد رحمه الله على أن القرآن الذي يوصف بأنه غير مخلوق هو ما كان كلاماً لله، بمعنى المعنى القديم الذي في نفسه، أدركتم هذا التحريف أو أعيد بيانه؟

ابن أبي زيد رحمه الله يقول: القرآن كلام الله، جملة تامة، منزل غير مخلوق، لا يفنى ولا يبيد، كلام ككلام السلف رحمه الله، لما كان هؤلاء الأشاعرة يقولون بالكلام النفسي، يعني يقولون: إن كلام الله الذي نثبته صفة من صفاته معنى قديم قائم في نفسه، وأما الحروف والأصوات فهي مخلوقة، ضبطوا كلام الله بالنص، كأنه زعموا أن ابن أبي زيد قال: القرآن أعني منه ما كان كلام الله الذي هو المعنى القديم القائم في نفسه غير مخلوق، أما ما سواه وهي الحروف والأصوات التي سمعها الأبوان وسمعها موسى ويسمعها عيسى، فهذه غير مشمولة بجملة (غير مخلوق)، لأنها مخلوقة في زعمهم، كل هذا والعياذ بالله من شؤم الاعتقادات الفاسدة، من اعتقد ثم استدل، والواجب على كل مؤمن أن يستدل ثم يعتقد.

قال أبو سعيد رحمه الله تعالى: [باب الاحتجاج على الواقفة.

قال أبو سعيد رحمه الله: ثم إن ناساً ممن كتبوا العلم بزعمهم وادعوا معرفته وقفوا في القرآن، فقالوا: لا نقول مخلوق هو ولا غير مخلوق، ومع وقوفهم هذا لم يرضوا حتى ادعوا أنهم ينسبون إلى البدعة من خالفهم وقال بأحد هذين القولين].

نعم، بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فقد عقد المصنف رحمه الله هذا الفصل في الاحتجاج على الواقفة، وعرفهم بتعريف بين، وهم أنهم الذين مقالتهم في القرآن يقولون: لا نقول مخلوق هو ولا غير مخلوق، أي أنهم يتوقفون في هذه المسألة التي حسمها السلف، إذ أن السلف رحمهم الله قد قطعوا بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأما هؤلاء فإنهم وإن ادعوا العلم ورووا الأحاديث إلا أنهم زعموا أن الصواب في التوقف، بأن لا يقطعوا بإثبات خلقه ولا نفيه، وفوق ذلك بَدَّعوا من خالف مقالتهم.

واعلموا أن التوقف مذهب، مذهب في الأصول ومذهب في الفروع، التوقف يُعد مذهباً، وذلك أنه تتقاوى الأدلة أحياناً على بعض الناس فلا يستطيع أن يرجح أحد القولين، وهذا يحصل كثيراً في الفروع، في المسائل الفرعية العملية، تتعارض الأدلة عند المجتهد، فيكون مذهبه في ذلك التوقف، ولهذا أمثلة كثيرة في جميع المقالات والمذاهب، فيقال: توقف فلان في كذا وكذا.

كما أنه أيضاً يحصل في المسائل الأصلية، أعني بها المسائل العقدية، فإنه قد يحتاج الإنسان أحياناً إلى التوقف، فكان من مذاهب السلف مثلاً التوقف في المفاضلة بين عثمان وعلي رضي الله عنهما أيهما أفضل، فإن قوماً قدموا عثمان على علي في الفضل، وقوم قدموا علياً وربعوا بعثمان، وقوم توقفوا في ذلك، واحتمل توقفهم بسبب تقاوي الأدلة وتعارض الأدلة عندهم، ولم يُنكر عليهم ذلك.

كما توقف بعض السلف في مسألة خلو العرش، هل إذا نزل الرحمن سبحانه إلى السماء الدنيا يخلو منه العرش أم لا، فبعضهم قال: يخلو، وبعضهم قال: لا يخلو، وبعضهم توقف.

أيضاً من المسائل التي حُفظ فيها التوقف مسألة الحركة، هل يُطلق لفظ الحركة، فكان من السلف من يعبر به، ومنهم من يمنعه، ومنهم من يتوقف في ذلك، يتوقف في لفظه مع إثبات حقيقة المعنى.

والمقصود أن التوقف يمكن أن يجري في المسائل الفرعية ويمكن أن يجري في المسائل الأصلية، مثلاً حينما يثبت الرب سبحانه لنفسه النزول والمجيء هل يكون ذلك بحركة أم لا، هل يكون بحركة أم لا، فيعني منهم من قال وعبر بذلك، ومنهم من منع، ومنهم من قال: نثبت المعنى، لأنه لا يمكن إثبات حقيقة نزول واستواء ومجيء إلا بذلك، ولكننا لا نعبر بهذا التعبير لأن ألفاظ الصفات توقيفية، كما قالوا في جميع الألفاظ المحدثة كالجهة والحيز والجسم، يقولون: نتوقف في اللفظ، لا نثبت ولا ننفي.

لكن إذا توقف الإنسان في مسألة قطعية دلت عليها الدلائل، فإن توقفه مذموم مردود عليه، كما في هذه الحالة، فإن هؤلاء الواقفة وقفوا في أمر لا يجوز الوقوف فيه، وهو القطع بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، فمن توقف في هذه المسألة فمقالته مقالة خبيثة، لأنه لا يصح أن يتوقف في مثل هذا، مثل لو قال إنسان: أنا أتوقف في تكفير اليهود والنصارى، نقول: بئس ما قلت، فإن من لم يكفر الكافر فهو كافر، فليس التوقف دليلاً على الورع دوماً، وعلى التوقي، لا، يكون أحياناً دليلاً على ضعف العلم وضعف اليقين وضعف النفس، فإذا قام الدليل على مسألة من المسائل وجب أن يقال بما قام عليه الدليل ولا يتردد في ذلك، ولهذا كان من أصناف التوقف المذموم ما حكاه شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله في أقسام الناس تجاه مسائل الصفات، فإنه قال: إن أهل القبلة قد انقسموا حيال نصوص الصفات إلى ستة أقسام، قسمان أجروهما على ظاهرهما، وقسمان أجروهما على خلاف ظاهرهما، وقسمان توقفا، هذه الأصناف الستة لا يسلم منها إلا صنف واحد، وهم أهل السنة والجماعة، الذين أجروا نصوص الصفات على ظاهرها اللائق بالله، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل. وأما من أجراها على ما هو معهود في الأذهان فهم الممثلة، وأما من أولها وعين المراد فهم أهل التحريف، وأما من قال هي على غير ظاهرها ولم يعين المراد فهم أهل ...

أما الواقفان من هؤلاء فصنف قالوا: نقرأ القرآن ونقرأ الحديث ولا نتكلم بشيء، لا إثباتاً ولا نفياً، فقط نكتفي بقراءة النصوص، يعني لا يقرؤون القرآن إلا أماني، تلاوي مجردة، لا يثبتون شيئاً ولا ينفون شيئاً.

الصنف الثاني من الواقفة المذمومة هم من جوزوا الأمرين، فقالوا: يجوز أن يكون المراد ما ذهب إليه السلف، ويجوز أن يقال أن يكون المراد ما ذهب إليه الخلف، فهذا توقف أيضاً، لكنه توقف بتجويز

الأمرين. فالمقصود أن التوقف تارة يكون سائغاً حينما تتقاوى الأدلة، وقد يقع ذلك في الأصول أو في الفروع، وتارة يكون غير سائغ، بل مذموم مردود باطل، كالتوقف في مسائل قامت الأدلة الصريحة على القطع بها، نفياً أو إثباتاً، فمن ذلك أو من هذا التوقف المذموم: طريقة الواقفة في مسألة خلق القرآن، وقد ذمهم السلف كما ستسمعون إن شاء الله. طيب. فقلنا لهذه العصابة.

[فقلنا لهذه العصابة: أما قولكم: مبتدع، فظلم وحيف في دعواكم حتى تفهموا الأمر وتعقلوه، لأنكم جهلتم أي الفريقين أصابوا السنة والحق، فيكون من خالفهم مبتدعة عندكم، والبدعة أمرها شديد، والمنسوب إليها سيء الحال بين أظهر المسلمين، فلا تعجلوا بالبدعة حتى تستيقنوا وتعلموا أحقا قال أحد الفريقين أم باطلاً؟ وكيف تستعجلون أن تنسبوا إلى البدعة أقواماً في قول قالوه، ولا تدرون أنهم أصابوا الحق في قولهم ذلك أم أخطؤوه؟ ولا يمكنكم في مذهبكم أن تقولوا لواحد من الفريقين: لم تصب الحق بقولك، وليس كما قلت].

لماذا لا يمكنهم؟ لأنهم ما داموا قد توقفوا فهم لا يستطيعون أن يُغَلِّطوا أي من الفريقين، لأنهم يتوقفوا في الشيء وضده، فلهذا قال: ولا يمكنكم في مذهبكم، مذهبهم هو التوقف، أن تقولوا لواحد من الفريقين لم تصب الحق بقولك وليس كما قلت، لأنهم لو قالوا بذلك للزمهم أن يقولوا بضده وهم قد منعوا الضدين، فهذا دليل على فساد مذهبهم، فكيف رموا أحد الفريقين بالبدعة وقالوا: إن هذا قول مبتدع. نعم.

[فمن أسفه في مذهبه وأجهل ممن ينسب إلى البدعة أقواماً يقول: لا ندري أهو كما قالوا أم ليس كذلك، ولا يأمن في مذهبه أن يكون أحد الفريقين أصابوا الحق والسنة فسماهم مبتدعة، ولا يأمن في دعواه أن يكون الحق باطلاً والسنة بدعة؟ هذا ضلال بين وجهل غير صغير].

نعم وهذا يدلنا على أهمية التوقي في التبديع، وأن التبديع ليست كلمة تُلاك باللسان، ويوزعها الإنسان يمنة ويسرة، بل يجب أن يتوقف في إطلاق لفظ البدعة، حتى يعلم حقاً أن مخالفه أو أن من ينقم عليه قد خالف الحق وأحدث في أمر الله أو في دين الله ما ليس منه. نعم.

[وأما قولكم: لا ندري مخلوق هو أم غير مخلوق، فإن كان ذلك منكم قلة علم به وفهم فإن بيننا وبينكم فيه النظر بما يدل عليه الكتاب والسنة ويُحتمل بالعقول، وجدنا الأشياء كلها شيئين: الخالق بجميع صفاته، والمخلوقين بجميع صفاتهم، فالخالق بجميع صفاته غير مخلوق، والمخلوق بجميع صفاته مخلوق].

هذا ما يسمى بالسبر والتقسيم، وهو مفيد في المحاجة العقلية، يقول: وجدنا الأشياء كلها شيئين، لا تخرج عن أحد هذين الشيئين، إما الخالق بجميع صفاته أو المخلوقين بجميع صفاقم، ووجدنا أن الخالق بجميع صفاته غير مخلوق، والمخلوق بجميع صفاته مخلوق، إذاً القرآن كلامه وهو صفته فيكون حينئذ غير مخلوق، لهذا قال: فانظروا.

[فانظروا في هذا القرآن، فإن كان عندكم صفة المخلوقين، فلا ينبغي أن تشكوا في المخلوقين وفي كلامهم وصفاقم أنها مخلوقة كلها لا شك فيها، فيلزمكم في دعواكم حينئذ أن تقولوا كما قالت الجهمية، فلتستريحوا من القال والقيل فيه، وتغيروا عن ضمائركم].

هكذا؟ وتغيروا؟ ... تغيروا؟ كأنها ينبغي أن تقول: وتعبروا، لكن ما دام أنها تغيروا عن ضمائركم. طيب. وإن كان.

[وإن كان عندكم هو صفة الخالق وكلامه حقاً ومنه خرج، فلا ينبغي لمصل يؤمن بالله واليوم الآخر أن يشك في شيء من صفات الله وكلامه الذي خرج منه أنه غير مخلوق، هذا واضح لا لبس فيه إلا على من جهل العلم مثالكم].

نعم، وهذه القسمة قسمة واضحة، فلم يُبق لهم باقية، فلا موجب لهذا التوقف وهذا الورع البارد الذي ادعوه في مسألة القرآن، بأن يقول قائلهم: لا نقول مخلوق ولا نقول غير مخلوق، نتوقف، هذا قول مُبتَدِع، يقال زعمكم أن هذا مبتدع زعم باطل، إذاً الأمر لا يخلو من أحد أمرين، إما أن يكون خالقاً أو مخلوقاً، فالله الخالق فهو وصفاته غير مخلوق، ومن سواه مخلوق بجميع صفاته، والقرآن كلامه وصفته، فما بقي لكم حجة تستمسكون بها، فإما أن تقولوا بمقالة الجهمية من أنه مخلوق فتستريحون من القيل والقال ويتضح مذهبكم، وإما أن تصيروا إلى الحق وتقروا بأنه صفة الرحمن وخرج منه، فهو وصفه غير مخلوق. ثم قال.

[وما فرق بينكم وبين من قال: هو مخلوق إلا يسير، يزعم أولئك أنه كلام الله مضاف إليه مخلوق، وزعمتم أنتم أنه كلام الله ولا تدرون مخلوق هو أو غير مخلوق، فإذا لم تدروا لم تأمنوا في مذهبكم أن يكون أولئك الذين قالوا: مخلوق، قد أصابوا من قولكم، فكيف تنسبونهم إلى البدعة وأنتم في شك من أمرهم؟ فلا يجوز لرجل أن ينسب رجلاً إلى بدعة بقول أو فعل حتى يستيقن أن قوله ذلك وفعله باطل ليس كما يقول، فلذلك قلنا: إن فرق ما بينكم يسير، لأن أولئك ادعوا أنه مخلوق، وزعمتم أنتم أنه كلام الله، ومن زعم أنه

غير مخلوق فقد ابتدع وضل في دعواكم، فإن كان الذي يزعم أنه غير مخلوق مبتدعاً عندكم، لا تشكون فيه أنه لمخلوق حقا لا شك فيه، ولكن تستترون من الافتضاح به مخافة التشنيع، وجعلتم أنفسكم جنة ودلسة للجهمية عند الناس، تصوبون آراءهم وتحسنون أمرهم وتنسبون إلى البدعة من خالفهم.

والحجة على هذه العصابة أيضاً جميع ما احتججنا به من كتاب الله في تحقيق كلام الله وما روينا فيه من آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن بعده أن القرآن نفس كلام الله وأنه غير مخلوق، فهي كلها داخلة عليهم كما تدخل على الجهمية؛ لأن كل من آمن بالله، وصدقه في قوله: ((وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ))[التوبة:٦]].

قوله: فهي كلها داخلة عليهم، أي ما احتججنا به من كتاب الله وما روينا من آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم. نعم.

[وفي قوله: ((يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ))[الفتح:١٥]، فأيقن بأنه كلامه حقاً كما سماه أصدق القائلين، لزمه الإيمان بأنه غير مخلوق؛ لأن الله تبارك وتعالى لم يجعل كلاماً مخلوقاً لنفسه صفة وكلاماً، ولم يضف إلى نفسه كلام غيره؛ لأنه أصدق القائلين، ولا يُقاس كلام الله ببيت الله وعبد الله وخلق الله وروح الله؛ لأن الخلق ليس من الله ولا من صفاته، وكلامه صفته ومنه خرج، فلا يضاف إلى الله من الكلام إلا ما تكلم به].

نعم، قوله: لأن الخلق ليس من الله، المراد بمن هنا؟ يعني أنه ليس من ذاته سبحانه، ولا من صفاته يعني المراد بالمخلوق أنه ليس من صفاته سبحانه، أما الخلق فإنه وصفه، فإن الخلق يُطلق على الوصف القائم بالخالق ويُطلق الخلق على المخلوقين أنفسهم، كأن تقول مثلاً: هؤلاء الخلق كذا وكذا، تقصد بهم المخلوقين، فأما كلامه سبحانه وتعالى فإنه صفته خرج منه.

ولهذا اعلموا أن المضاف إلى الله سبحانه وتعالى يكون له حالان: إما أن يكون عيناً قائماً بنفسه، فحينئذ يكون مخلوق، أو لا يمكن أن يُتصور أن يكون عيناً قائمة بنفسها، فحينئذ لا بد أن يكون صفة، كيف ذلك؟ المضاف إلى الله سبحانه وتعالى إذا تصور الذهن وأثبت الذهن أنه عين قائمة بنفسها، مثل بيت الله، عبد الله، ناقة الله، نعم، فإن هذا لا يمكن أن يكون وصفاً، بل هو مخلوق، وحينئذ يُنظر إضافته إلى الله هل هي إضافة تشريف أم إضافة مخلوق إلى خالقه وحسب، فحينما تقول عن الكعبة: بيت الله، فالإضافة إضافة تشريف،

وحينما تقول مثلاً: عبد الله ((وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ))[الجن:١٩] فهي إضافة تشريف، وحينما تقول لرجل من الفساق: يا عبد الله اتق الله، فهي إضافة مخلوق إلى خالقه.

أما إذا كان المضاف إلى الله لا يُتصور أن يكون عيناً قائماً بنفسه، كعلم الله، سمع الله، بصر الله، لا يمكن أن يكون علم إلا أن يقوم بعالم، سمع إلا أن يقوم بسامع، بصر إلا أن يقوم ببصير، فحينئذ يكون وصفاً، وبناء عليه فإنه حينما تقول عن عيسى عليه السلام بأنه روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فإن هذه الإضافة من إضافة المخلوق إلى خالقه وهي إضافة تشريف، لأن عيسى رجل يمشي على وجه الأرض، فلا يقال إنه صفة قطعاً، وهكذا في كل ما يضاف إلى الله سبحانه وتعالى، يُنظر هل يمكن أن يُتصور أن يكون عيناً قائماً بنفسه أو لا يمكن ذلك. نعم.

إيه ((وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي))[الحجر:٢٩] روح مخلوقة، (من) هذه ليست للتبعيض قطعاً، ولهذا النصارى يشبهون بهذه الآية على دعواهم في الحلول، يزعمون بأن ((وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي))[الحجر:٢٩] أن جزءاً من الله تعالى حل في المسيح، ويقولون .. هاه؟ في آدم، وكذلك أيضاً في المسيح، لأنه كما قال الله: ((إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ))[آل عمران:٥٩] ((وَرُوحٌ مِنْهُ))[النساء:١٧١] ليس وروح منه (من) هذه للتبعيض، ولكنها (من) الابتدائية، يعني خُلق بكلمة منه، وهي كلمة (كن)، ولهذا قال في الآية: ((إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ))[آل عمران:٥٩]، فـ(من) المقصود بها ابتداء خلقه بكلمة (من) لا أنه جزء منه، تعالى وتبارك سبحانه عن ذلك.